منهج البحث اللساني عند نوام تشومسكي

مقياس: مناهج البحث اللساني **الأستاذ لخضر روبحي**

السنة الأولى ماستر **جامعة المسيلة**

حياة تشومسكي العلمية:

وُلد أفرام نعوم تشومسكي في 7ديسمبر 1928، في فيلادلفيا، بنسلفانيا. أبواه ويليام "زيف" تشومسكي وزوجته إلسي سيمونوفسكي. كان والده يهوديًا أشكنازيًا أصله من أوكرانيا هاجر إلى الولايات المتحدة في عام 1910. كلا والديه عملا في التعليم، فوالده عالمٌ في اللغة العبرية ووالدته مدرسة

التحق بالمدرسة الثانوية المركزية وأثبت أنّه طالبٌ استثنائي. لم يكن أداءه جيدًا في الدراسات الأكاديمية فحسب، بل شارك أيضًا في الأنشطة المصاحبة للمناهج الدراسية. ومع ذلك، لم يعجبه الأسلوب الصارم للتعليم المستخدم هناك

في عام 1945 ، التحق بجامعة بنسلفانيا حيث درس الفلسفة والمنطق واللّغات. خلال سنوات دراسته الجامعية، التقى باللغوي المولود في روسيا زيلينج هاريس الذي ألهب في شباب نعوم اهتمامًا بالغًا باللسانيات النظرية. كما تطور اهتمام تشومسكي بالفلسفة بفضل وصاية نيلسون غودمان. حصل تشومسكي على درجة الماجستير في عام1951.

قدم نعوم تشومسكي رسالة الدكتوراه في التحليل التحويلي في جامعة بنسلفانيا وحصل على درجة الدكتوراه في اللغويات عام 1955.

عُيِّن نعوم تشومسكي أستاذًا مساعدًا في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا في عام 1955. حيث طُلب منه قضاء وقتٍ طويل في مشروع الترجمة الآلية إلى جانب واجباته التدريسية.

كان عمله محلّ تقديرٍ كبير، وفي غضون عامين ترقّى إلى منصب أستاذٍ مشارك. كما شغل منصب أستاذٍ زائر في جامعة كولومبيا في 1957-1958. وفي عام 1957، نشر كتابه الأول "الهياكل النحوية" استنادًا إلى سلسلةٍ من المحاضرات التي قدّمها لطلابه في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا.

طُلب من تشومسكي وزميله موريس هالي إنشاء برنامجٍ جديد للتخرج من دراسة علم اللغة. وقد أثبت البرنامج نجاحًا كبيرًا وجذب العديد من الطلاب البارزين مثل روبرت ليس وجيري فودور وجيرولد كاتز الذين أصبحوا في نهاية الأمر من اللغويين المشهورين في حقولهم الخاصة.

أصبح تشومسكي أستاذًا في قسم اللغات واللغويات الحديثة في عام 1961. وبحلول ذلك الوقت، جعل من نفسه أستاذًا لغويًّا شهيرًا، ممّا أدّى إلى تعيينه كمتحدثٍ في المؤتمر الدولي التاسع للغويين الذي عُقد عام 1962 في كامبردج، ماساتشوستس. عزز ذلك سمعته الدولية.

مؤلفاته:

إنّ الجهود التي قام بها تشومسكي في سبيل بناء نظرية لغوية شاملة، ومقوضة لما سبقتها من نظريات، كان لابدّ أن تسفر عن مؤلفات تترجم فكره وتوثقه، وهي مؤلفات صدرت في فترات زمنية متقاربة، من أبرزها:

- البنى التركيبية Les structures syntaxique سنة: 1957م.
- البنية المنطقية للنظرية اللسانية La structure logique de la théorie linguistique ألفه سنة 1955م، لكن صدوره أجل إلى سنة 1975م.
- ملامح النظرية التركيبية L'aspect de la structure syntaxique سنة: 1965م.
- اللسانيات الديكارتية La linguistique cartésienne سنة: 1966م.
- الأنماط الصوتية في اللغات الإنجليزية Les types phonologiques de la langue anglaise سنة:1968.

هذا إلى جانب أعمال علمية أخرى تنمّ عن سعة علمه وإطلاعه.

نقده للنحو الوصفي:

مما لاشك فيه أنّ المهج التوليدي التحويلي نشأ على أنقاض اللسانيات البنيوية، حيث أنّ تشومسكي وجّه نقده للنحو الوصفي عموما، بما في ذلك طريقة بلومفيلد في البحث اللغوي، وهو ما كان متبعا في المذهب السلوكي.

رفض تشومسكي ما ذهب إليه ليونارد بلومفيلد Leonard Bloomfield ، كما هو بمقاييس (المنبه) و(الاستجابة) أي أنّ البحث اللغوي يكاد يعامل الإنسان باعتباره (آلة) تتحرك حسب قوانين تحددها مواقف معينة. وعليه فإنّ النحو الوصفي عموما لا يقدم إلا هذه الأنماط الشكلية، فالإنسان عنده ليس هذه الآلة، إنّه لا يختلف عن الحيوان بقدرته على التفكير بالذكاء فحسب، ولكنه يفترق عنه بقدرته على اللغة. وهذه الأخيرة هي أهم الجوانب الحيوية في النشاط الإنساني، وليس من المعقول أن تكون مجرد تراكيب شكلية يسعى الوصفيون إلى تجريدها من (المعنى) ومن (العقل) في هذا الوصف السطحي الذي صوره فردينان دوسيسر Ferdinand de Saussure أول هذا القرن.

فدراسة اللغة لا ينبغي أن تتوقف عند هذا المنهج الوصفي، باعتباره (مستقلا) لا يتجاوز حدود المادة المباشرة، وإنما ينبغي أن تعيننا الدراسة اللغوية على فهم (الطبيعة) البشرية.

ويلفت تشومسكي الاهتمام بنظريته التوليدية التحليلة إلى الأطفال على وجه الخصوص، فهم –في سن الخامسة مثلا– يستطيعون أن ينطقوا كل يوم مئات الجمل لم ينطقوها من قبل، ويستطيعون أن يفهموا ما يقال لهم من (كلام) لم يسبق لهم أن سمعوه، ومعنى ذلك أنّ هناك أصولا (عميقة) في التركيب الإنساني تجعله يتميز بهذه القدرة. وعلى اللغوي أن يبحث عن الأصول العميقة لدى الإنسان، وأن يضع في حسبانه أيضا (قدرته على اللغة).

وعليه فقد نشأ النحو التوليدي كردّ فعل على التيار السائد آنذاك، وهو البنيوية [1]، فهي تقدم الدراسة اللغوية على ما يسمى بالمدونة اللغوية لا غير، وهي عبارة عن مجموعة محدودة من الملفوظات المنجزة، وهذه المدونة لا يمكن أن تمثّل اللغة، وإن حاولت. إذ البنيوية لا تهتم من اللغة إلا بجانبها الظاهر، أي ما يسميه تشومسكي البنية السطحية surface structure والتي لا تقدم شيئا، بلا تعتبر علما لكونها لا تقف على قوانين الطبيعة البشرية، فالأهم أن نصل إلى البنية التحتية أو العميقة deep or underlying structure.

فهناك جانبان لا مناص من الاهتمام بهما معا لفهم اللغة الإنسانية، أما الجانب الأول فهو الأداء اللغوي الفعلي actual linguistic performance.

جوانب من النظرية اللسانية عن تشومسكي:

أولا: مبدأ الاكتساب اللغوي:

إنّ خاصية الاكتساب اللغوي عند تشومسكي، مرتبطة أساسا بالمنهج التوليدي ككل، وهو "منهج ذهني يجعل ملكة اللغة قدرة فعالة غريزية وفطرية، وهي قدرة تخص الإنسان وحده" [2].لذلك يرفض تشومسكي "النظرية الآلية إلى اللغة من حيث كونها عادة كلامية قائمة على المثيرات والاستجابات" [3]. وهي النظرة التي سادت فكر السلوكيين وقادتهم إلى القول بأنّ اللغة سلوك لغوي يستجيب مثيرات خارجية، تخضع لسلطة البيئة بالدرجة الأولى، وأتى تشومسكي برأي مخالف مفاده أنّ الاكتساب اللغوي يكون عن طريق امتلاك الإنسان لمعارف لغوية تتضمن قواعد كلية. فهو بذلك يشرح اللغة ويعلّل أسبابها من الداخل وليس من الخارج، بمعنى أنّ الاكتساب اللغوي ناتج عن مقدرة الإنسان الفطرية، حيث أطلق عليها مصطح الكفاية اللغوية أو القدرة الإبداعية، وهي "المعرفة اللغوية المتعارف عليها بين المتكلم والمستمع والموجودة في الدماغ البشري"[4]

ثانيا: مبدأ الإبداعية اللغوية:

ويقصد بها:" مقدرة الإنسان على إنتاج جمل لا حصر لها دون أن يكون قد سمعها من قبل" [5]، فبعدما كان الإنسان موصوفا بالتقليد والمحاكاة واجترار ما يسمعه من الصيغ اللغوية، أتى تشومسكي ليبطل هذا الزعم، ويؤكد أنّ اللغة من أهم الأنشطة التي ينفرد بها الإنسان الذي لا يكتفي بتلفظ الصيغ التي التقطها سمعه فحسب، وإنّما يستطيع أن يولّد قدرا كبيرا من

الجمل لم يسمعها قط، ويعبر عنها بصورة غير متناهية من التراكيب. كما بيّن ذلك ميشال زكرياء بالقول:" أنّ اللسان كغيره من المعلومات البشرية ومضات إلهام في الأزل يصل إليها العقل الإنساني في هذه الحياة عن طريق الإلهام" [6]. وبذلك يكون تشومسكي نافيا أن يكون للبيئة دور في اكتساب الإنسان للغته.

مراحل تطور النحو التوليدي:

مرت هذه النظرية بمراحل ثلاث[7]:

- تبدأ المرحلة الأولى في الخمسينات وتمتد إلى منتصف الستينات، وقد سعت النظرية التوليدية في هذه المرحلة أن تجعل من اللسانيات علما كسائر العلوم، ويمثل هذه الفترة كتاب تشومسكي (البنية المنطقية للنظرية اللسانية1956)

- وتبدأ المرحلة الثانية من سنة 1965م إلى سنة 1970م، وفيها تعرضت النظرية التوليدية إلى قضية لا تخلو معالجتها من حدة، وهي قضية الدلالة.

- وتمتد المرحلة الثالثة حتى يومنا هذا.

الكفاية اللغوية والأداء الكلامي:

استفاد تشومسكي من تقسيم اللغة عند دي سوسير (لسان language) و(كلام parole)، فأطلق تشومسكي على لسان مصطلح الكفاءة (compétence)، وعلى كلام الأداء (performance).

ويرى تشومسكي أنّ اللغة ميزة إنسانية تميز الإنسان عن سائر المخلوقات، وبفضلها يستطيع كل إنسان إنتاج عدد غير متناه من جمل لغة بيئته، حتى وإن لم يسمعها من قبل، ويسمي هذه المقدرة على إنتاج الجمل وتفاهمها بـ (الكفاية اللغوية) [8]. وهي بذلك المعرفة الحدسية الضمنية للغة، والقدرة على توليد الجمل وفهمها، وعلى التمييز بين صحيح الكلام وسقيمه، أي بين الجمل النحوية والجمل اللانحوية.

أما الأداء أو الإنجاز فهو التجسد المادي لنظام اللغة في إحداث الكلام، فهم خروج الكفاءة اللغوية من حيز القوة إلى حيز الفعل ضمن سياق معين. ومن خلال الأداء الكلامي يستعمل المتكلم بصفة طبيعية القواعد الكاملة ضمن كفايته اللغوية. يقول ميشال زكرياء "فالأداء الكلامي هو الاستعمال الآني للغة ضمن سياق معين، وفي الأداء الكلامي يعود متكلم اللغة بصورة طبيعية إلى القواعد الكامنة ضمن كفاءته اللغوية كما استعمل اللغة في مختلف ظروف التكلم، فالكفاءة اللغوية بالتالي هي التي تقود عملية الأداء الكلامي"[9].

البنية العميقة والبنية السطحية:

بالإضافة إلى الكفاية اللغوية والأداء الكلامي، تعتمد النظرية التوليدية التحويلية على ركيزة البنية العميقة والبنية السطحية. فأما الأولى فيقصد بها ذلك المعنى الكامن في نفس المتكلم بلغته الأم، ومقياسه هو الكفاية اللغوية. وأما الثانية فتعني ما ينطقه الإنسان فعلا، وهي تظهر من خلال الأداء الفعلي للكلام.

وهناك قوانين تنظم العلاقة بين المعنى المقصود (العميق) والمعنى الظاهر (السطحي)، هذه القوانين تطبق على الأولى فتحولها إلى الثانية، وهي التي أطلق عليها تشومسكي: (القوانين التحويليةmodele transformationelle) [10].

وتتميز البنية العميقة بما يلي:

- إنّها البنية المولدة في قاعدة التركيب بواسطة قواعد إعادة الكتابة والقواعد المعجمية.
- تمثل التفسير الدلالي للجملة.
- يمكن لها أن تحول بواسطة القواعد التحويلية إلى بنية سطحية.

أما البنية السطحية: فميزتها أنّها نتاج العملية التوليدية التي يقوم بها المكون التركيبي، أي هي الشكل الصوتي النهائي للتتابع الكلامي المنطوق فعلا. فهي بذلك ترتبط بالأصوات اللغوية المتتابعة.

ويتألف المكوّن التركيبي من مكونين:

- مكوّن أساسي (composant de base) ويرتبط بالبنية العميقة.
- مكوّن تحويلي (composant transformationnel) يرتبط بالبنية السطحية.

فهناك جانبان لا مناص من الاهتمام بهما معا لفهم اللغة الإنسانية عند تشومسكي ألا وهما:

الأول: الأداء اللغوي الفعلي (actuel linguistique performance) وهو يمثل ما ينطقه الإنسان فعلا، أي: يمثل البنية السطحية للكلام الإنساني.

الثاني: الكفاءة التحتية وهي البنية العميقة للكلام.

وهذان المصطلحان يمثلان حجر الزاوية في النظرية اللغوية عند تشومسكي، لأنّ الأداء أو السطح يعكس ما يجري في عمق التركيب من عمليات.

الهوامش

1- ينظر: نور الهدى لوشن، مباحث في علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، المكتبة الجامعية، الإسكندرية،2000م، ص334.

2- نعمان بوقرة، المدارس اللسانية المعاصرة، ص 140.

3- اسمهان الصالح وأحمد المهدي المنصوري، النظرية التوليدية التحويلية وتطبيقاتها على النحو، ص326.

4- مازن الواعر، قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث، درا الملايين، دمشق، ط1، ص.116

5- نعمان بوقرة، المدارس اللسانية المعاصرة، ص 143.

6- ميشال زكرياء، الألسنية التوليدية التحويلية وقواعد اللغة العربية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1982م، ص10.

7- ينظر: نور الهدى لوشن، مباحث في علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، ص.333

8- ينظر: عبد الراجحي، النحو العربي والدرس الحديث، دار النهضة العربية، بيروت، 1979م، ص112.

9- ميشال زكرياء، الألسنية التوليدية التحويلية وقواعد اللغة العربية، ص33.

10- Principe de phonologie génératrice, p145.